

مواقف الإمام وردوده على استفسارات الناس

د. سليمان ولد خصال
جامعة المديّة

مشاريها ومدارسها فينطلي ذلك على العامي ما يوقعه في حيرة واضطراب، فضلا على تلك الفتاوى التي تتبناها بعض الفرق الإسلامية والتي تحاول بقصد أو بغير قصد النيل من المرجعية الجزائرية المتمثلة أساسا في مذهب الإمام مالك.

وتأتي هذه المداخلات لتحاول الإجابة عن مثل هذه الانشغالات، لعلها تضع لبنة ولو صغيرة قد تساعد الإمام في تخطي بعض هذه الصعوبات، وقد تناولتها من خلال العناصر التالية:

لعل من أهم التحديات ومن أصعب المهمات التي تعترض الإمام وتواجهه تلك الاستفسارات والتساؤلات التي يطرحها عليه كثير من الناس، ومن مختلف مراكزهم ومع تباين مقاصدهم ونياتهم! وبعض هذه التحديات يأخذ شكل مواقف وردود عملية فيضطر الإمام إلى أن يتعامل معها بالشكل المقبول وبالتصرف السليم.

ومما زاد من صعوبة مهمة الإمام تلك الفضائيات التي أصبحت تدخل إلى بيوتنا كرها أو طوعا، فتتباين الفتاوى لتباين

إليها فقهاء النوازل، ولكن هذا لا يمنع من القول إن الإمام يمكنه الإفادة من بعض الآليات التي تسمح له على الأقل بنقل الفتوى وتلك ميزة انفرد بها أهل هذا العصر، ولعل من أهم هذه الآليات المجالس العلمية الولائية، والمجامع الفقهية فضلا على كثير من علماء الجزائر ممن وصلوا إلى رتبة معتبرة في فقه مذهب الإمام مالك.

ويبدو أن الإمام الناجح في الرد على هذه الاستفسارات هو الذي يبحث ولا يكل ولو كان مستواه متواضعا، فالمثابرة والنفس الطويل في البحث عوامل كفيلة برفع مستوى الإمام العلمي والشرعي، بخلاف العالم العاجز الذي قد يراوح مكانه أو يتراجع القهقري.

قال ابن الجوزي: «فأما من أنفق عمر الشباب في العلم فإنه في زمن الشيخوخة يحصد جني ما غرس ويلتذ بتصنيف ما جمع، ولا يرى ما يفقد من

أولا: محددات منهجية تتعلق بمصطلحات المداخلة: وهي كما يبدو من خلال عنوان المداخلة ثلاث مصطلحات:

1 - الاستفسارات: ويراد بها تلك الأسئلة التي يطرحها المأموم على إمامه، وهي استفسارات قد تحمل طابع البحث عن حكم شرعي عملي أو عقدي أو أخلاقي، وقد تحمل طابع النصح والإرشاد، لأن الناس يكونون بأمس الحاجة إلى شخص يثقون فيه، وأكثر من يستحق هذه المتزلة هو الإمام، لأنه عند الكثيرين هو المتنفس الوحيد بالنسبة إليهم، وجدير بالذكر أن مصطلح الاستفسارات استعمله فقهاء المغرب العربي بعبارات متنوعة منها: المسائل، الأسئلة، الجوابات، الأجوبة، النوازل، الفتاوى.

2 - الإمام: لا يمكن أن نتصور الإمام بتلك الرتبة الاجتهادية التي وصل

لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم».

3- الناس: يقصد بهم تلك الجموع من المأمومين الذين يحضرون مع الإمام الصلوات الخمس وصلاة الجمعة، وقد يكونون من خارج مسجده، على أن ما ينبغي أن يراعيه الإمام في هؤلاء الناس تفاوت مراتبهم العلمية والدراسية، ولهذا فإن الإمام مطالب بقدر من التحصيل العلمي والمعرفي، فضلاً على تخصصه الشرعي، ولا يستهين بمن يحضرون دروسه وحلقاته ففيهم العالم المتبحر، وفيهم الجاهل، وفيهم من حسنت أخلاقه، وفيهم من أخلاقه سيئة وطباعه غليظة، وعليه فلا بد من التحضير الجيد علمياً كان أو نفسياً، «ومن الناس من يجازف بالفتوى في أمور المعاملات الحديثة، مثل التأمين بأنواعه، وأعمال البنوك، والأسهم والسندات، وأصناف

الشركات، فيحرم أو يحلل دون أن يحيط بهذه الأشياء خبراً ويدرسها جيداً».

ثانياً: الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الإمام: وهي شروط كثيرة لعل أهمها فيما يتعلق بردوده على استفسارات الناس ينحصر فيما يلي:

1 - الإخلاص والصلاح: وهو شرط ضروري لكل مسلم لتعلقه بقبول الأعمال، فإذا ما جمع الإمام بين الإخلاص والنية الصادقة والتقوى والعمل الصالح، فإن الله عز وجل لن يخذله، فما إن تواجهه مشكلة إلا وتحل وتفتح خيوطها، قال تعالى: ﴿واتقوا الله، ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾. [البقرة: 282]

قال الفخر الرازي: «والمعنى أنه يعلمكم ما يكون إرشاداً في أمر الدين، والله بكل شيء عليم إشارة إلى كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع مصالح الدنيا والآخرة».

ملف العدد

في هذه الفترة مطالب بأن يخالط الناس مخالطة إفادة واستفادة لا مخالطة تميع لشخصيته، وأن يجالس الكبار والحكماء فإن تجربة أمثال هؤلاء تختزل له الطريق، وعليه بقراءة المذكرات وكتب الطبقات والتراجم ففيها الأنس والاستفادة.

قال ابن الجوزي: «ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه، ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلت من معرفة العلم لا يقاوم».

4 — التكوين الشرعي السليم

والمستمر: إن مشكلة بعض الأئمة لا يكون في مستواهم المحدود والمتواضع وإنما في استسلامهم لهذا الواقع، واكتفائهم

2 — الملكة: وهي موهبة تتعلق بالحكمة وحسن التصرف والرد، وهذه تؤتي لبعض الناس فضلا من عند الله عز وجل، فقد تواجه الإمام أسئلة واستفسارات تهدف إلى إحراجة أو تعجيزه، وقد يكون ذلك بقصد أو بغير قصد، على أن بعض الأئمة ممن لم يتوفر فيهم هذا الشرط الجبلي يمكن أيضا أن يحسنوا الرد إذا ما تحقق فيهم شرط الإخلاص والصلاح.

ومن الأمثلة التي يذكرها أهل العلم في هذا المقام أن الفقيه التابعي الإمام الشعبي كان يستخدم النكتة اللاذعة في الرد على هذا اللون من الأسئلة الغريبة، فقد سأل أحدهم يوما عن زوجة إبليس !!، فقال: ذاك عرس لم أشهده!!.

3 — التجربة والخبرة: فالإمام

الذكي هو الذي لا يستعجل الثمار ولا يحمل نفسه أكثر مما تستطيع، فالزمن كفيل بأن يعلمه ويؤهله، على أن الإمام

ثقافة عامة تصله بالحياة والكون وتطلعه على سير التاريخ وسنن الله في الاجتماع الإنساني حتى لا يعيش في الحياة وهو بعيد عنها جاهل بأوضاعها».

ويبدو أن الإمام أحمد لخص لنا كل هذه الشروط عندما قال: « لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

أولها: أن تكون له نية، فإن لم تكن له نية لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور.

والثانية: أن يكون له حلم ووقار وسكينة.

والثالثة: أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته.

والرابعة: الكفاية وإلا مضغه الناس. والخامسة: معرفة الناس».

ثالثا: الصعوبات الراهنة التي تواجه الإمام في هذا المجال.

يبدو أن أهم الصعوبات التي قد

بما يعرفون!، ولقد أثبتت التجربة بالمقابل أن بعض الأئمة ارتقوا إلى مدارج العلماء بفضل حرصهم على التعلم والانفتاح على قنوات العلم والتحصيل، ولهذا قال بعض أهل العلم « ولن يدرك ذلك إلا بملاقة الرجال والاجتماع مع أهل النحل والمقالات المختلفة، ومساءلتهم وكثرة المذاكرة لهم، وجمع الكتب ومدارستها ودوام مطالعتها».

5 - التشبع بالثقافة العامة: إن

الإمام الناجح هو الذي يعيش ويعايش عصره وزمانه، ولكل زمان ثقافته وميزانه، وعلى هذا فإن الإمام لابد أن يملك قدرا من الثقافة النفسية والطبية والإعلامية، وإلا فكيف يستطيع التأثير في مجتمع وهو لا يملك أدنى معارفه وتحدياته؟!، وعليه فلا يجوز « أن يفتي الناس من يعيش في صومعة حسية أو معنوية، ولا يعي واقع الناس، ولا يحس بمشاكلهم»، بل «لا بد للمفتي من

وحسب بأن يقوي جانبه العلمي والشرعي خاصة في علاقة الفقه بالدليل، وفي علوم الحديث ومصطلحاته، وفي أحكام تلاوة القرآن الكريم.

إن التشبث بالمرجعية الفقهية المالكية ليس الهدف منه التعصب المقيت أو محاربة آراء فقهية أخرى، وإنما الهدف منه المحافظة على وحدة المسلمين خاصة في مجال العبادات، فإن أخطر ما قد يستعمل لضرب المسلمين بعضهم ببعض تلك الفتاوى الشرعية المتضاربة التي تؤول بدورها إلى نشوء جماعات و فرق، تكون أداة وفريسة لهدم المجتمع الجزائري بواسطتها.

يقول الشيخ أبو زهرة: «ولقد راع الناس ذلك العمل الفقهي الجليل بعد عصر الأئمة، وكان لكل إمام تلاميذه اتبعوه وفتحوا فمجه، ثم جاء من بعدهم من درسوا تلك الآراء المروية، وهكذا أخذ الإتياع يسود التفكير الفقهي،

تعتري عمل الإمام في هذا المجال الدعوي الرسالي مسألتان هما:

1 — انتشار وتعدد الفتاوى بتعدد

الفضائيات: فالعامي الذي يشاهد هذه الفضائيات لا يعرف بأن ثمة مدارس فقهية متعددة، وأن الحكم الشرعي في بعض المسائل قد يختلف من مدرسة فقهية إلى أخرى، لهذا لم يعد الإمام يكتفى منه وحسب القول بأن هذا جائز أو حرام، وإنما أصبح مطالبا بأن يصور المسألة من جميع جوانبها، فإن العامة تتعلم وتتشف بثقافة الإمام وحسن عرضه.

2 — بروز تيارات أخرى في الجزائر

غير المدرسة المالكية: إن هذه التيارات تحاول أن تقنع الناس بأن فقهها مأخوذ من الكتاب والسنة الصحيحة، وكأنها تعرض بقصد أو بغير قصد أن مذهب الإمام مالك ليس مذهب الدليل، وعلى كل فإن الإمام ليس مطالبا بأن يدخل معهم في صراع وجدال، وإنما مطالب

عن الدليل الشرعي أو عقد مقارنة بين الآراء الفقهية، فإن فعلت فإنك قد ترهق السائل لغير حاجة، ومع ذلك لا بد من أخذ الاحتياطات التالية:

1 — على الإمام أن يقلّب السؤال من كل جوانبه حتى يكون السؤال واضحاً، وليحذر من بعض الناس ممن لا يهمهم إلا أن يأخذ الفتوى جاهزة وينسبها إلى الإمام العلاني بتحايل.

قال ابن القيم: «ولا يظن المستفتي أن مجرد فتوى الفقيه تبيح له ما سأل عنه إذا كان يعلم أن الأمر بخلافه في الباطن...».

2 — على الإمام ألا يكثر من قول لا أعلم، فإن هذا من شأنه لو استمر أن ينقص من قدر الإمام ومكانته، ولا يحاول أن يقارن بين هذا وبين ما وقع للإمام مالك الذي قال عنه ابن أبي حسان: «سئل مالك عن اثنين وعشرين مسألة فما أجاب إلا في اثنتين بعد أن

ومن وراء الاتباع كان التقليد، فالتقليد صار من القرن الرابع الهجري، ولكنه كان تقليداً جزئياً ابتداءً، ثم أخذ نطاقه يتسع حتى صار تقليداً كلياً في آخر العصور».

رابعا: مظاهر وصور الاستفسارات، وطرق التعامل معها: لعل من أبرز هذه المظاهر والصور ما يلي:

1 — **الاستفسارات ذات الطابع العلمي:** قد ترد على الإمام أسئلة شرعية من قبل السائلين، وعلى الإمام في مثل هذه الحالات أن يميّز بين العامي والمتعلم والمتعلم:

أ- فأما العامي فهو شخص عادي قد تواجهه مشكلة في الحياة، أو تعترضه مسألة شرعية، فيأتي إلى الإمام لمعرفة الحكم الشرعي وحسب، ولغرض العمل ليس إلا، فهذا الشخص يكفي معه أن تجيبه وأن توضح له مسألتة دونما حاجة إلى أن ترهق نفسك في البحث

ملف العدد

وقد تحتاج المسألة إلى تخصص شرعي أو قانوني، فقد سألني بعض الأئمة عن شخص خطب امرأة وعقد عليها العقد الشفوي «الفاحة»، وليس العقد الإداري، ثم أرادت هذه المرأة أن تفسخ عقد قرانها فأبى الزوج أن يطلقها، فطلبت الخلع لكن الزوج أيضا رفض الخلع، فماذا تفعل هذه المرأة في مثل هذا الإشكال؟!، فمثل هذه الحالات نطلب دائما من إخواننا الأئمة أن ينصحوا الآباء ألا يتسرعوا في فترة الخطبة بعقد «الفاحة»، وما دام قد وقعت هذه الزوجة في هذا الإشكال فعليها أولا أن تسجل زواجها إداريا في البلدية، أو في المحكمة إذا رفض الزوج ذلك، وهذه دعوى تسمى «دعوى إثبات الزواج»، ثم تقوم الزوجة بعد ذلك برفع دعوى ثانية تسمى دعوى الخلع، والقاضي سيثبت لها الحكم بناء على المادة 54 من الأمر رقم 02/05 «يجوز للزوجة دون

أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله». فالمقارنة هنا قياس مع الفارق، فضلا على أن أكثر أسئلة الناس إنما يجيب عنها الإمام من باب نقل الفتوى وليس من باب استنباط الحكم الشرعي العملي، والزم ليس في قول الإمام: «الله أعلم»، وإنما في الإكثار منه.

3 — على الإمام ألا يتسرع في الإجابة، فله أن يؤجل الإجابة ليوم أو أكثر، حتى يتثبت من معلوماته، أو يتسنى له مراجعة المسألة مع إخوانه من الأئمة والعلماء، وقد سألتني ذات يوم امرأة كبيرة في السن هل يجوز لها أن تعتمر بدون محرم؟، فأجبت على الفور بأنه يجوز لها ذلك مع رفقة مأمونة قياسا على الحج، لكن بمجرد أن راجعت المسألة مع بعض أهل العلم تبين لي أن فتوى المالكية إنما تكون في الفرض، والعمره سنة، وبالتالي فإن الحكم يختلف وعلى المرأة ألا تعتمر إلا مع ذي محرم.

موافقة الزوج أن تخالع نفسها بمقابل مالي».

ب — وأما الاستفسارات التي تأتي من المتعلم أو من المتعلم فيكفي أن يقوم الإمام بعرض وتقديم الحكم الشرعي إلى السائل مع دليله الشرعي إن اقتضى الأمر ذلك وفق مذهب الإمام مالك، مع ضرورة مراعاة الملاحظات التالية:

1 — أن السائل ربما كان متعلما مثقفا، فهذا أحد رجلين، إما أنه متعلم ومثقف ثقافة غير شرعية وهنا ينبغي للإمام أن يحتاط لنفسه، والأفضل له أن يملك قدرا من الثقافة العلمية، فقد سألني شخص ذات جمعة بعد ما ألقيت درسا عن مرض السيدا وكيف أن العلاقات المحرمة وسيلة قوية من وسائل نقل هذا المرض، فظن السائل أنني قلت إن العلاقات الجنسية المحرمة هي سبب الداء، وبعد محاورات تبين لي أن الرجل مدير مخبر البكتيريا والجراثيم؟!، وإما أنه

متعلم ومثقف ثقافة شرعية ولكنه يريد التحقق من الحكم الشرعي والاطمئنان له فهذا لا بأس من محاورته ومناقشته، لأن العلم « لن يدرك إلا بملاقة الرجال».

2 — أن السائل ربما كان من المتعلمين، فهذا إما أنه يقصد الجدل، وإما أنه يظن أن ما ذهب إليه أخذ من يثق فيهم هو الصواب، وعين الحقيقة ففي مثل هذا الحال يتعين على الإمام أن يجيب عن المسألة بدليلها الشرعي وفق مذهب مالك المعتمد في الجزائر، متحاشيا الجدل الذي نهينا عنه شرعا، ولا يهمه بعد ذلك أن يقتنع السائل، فهذا ليس من مهام الإمام مع هذا النوع من السائلين، فضلا على أن المجادل لا يريد الاحتكام إلى الحقيقة العلمية والموضوعية بقدر ما يريد الانتصار إلى مذهبه.

3 — لا بد على الإمام أن يقوي جانبه العلمي حتى يحيط بالمسألة، ليس بغرض

فلا يفضح، والذي يشارك هموم وآلام الناس، ويسعى ما استطاع إلى التخفيف منها بالنصح والكلام الطيب ومحاولة إيجاد بعض الحلول والصبر على السماع وتحمل مشاكل الناس.

والذي ينبغي أن يعلم أن أكثر ما يأتي للإمام من استفسارات إنما هو من هذا القبيل، أي من باب النصح والإرشاد. إن الإمام بالنسبة إلى الكثير من الناس هو متنقّسهم عندما يشعرون بضيق الحياة، وهو أملهم الذي من خلاله يحسّون بالطمأنينة والأمل: « إن من أسوأ الأشياء خطراً على المفتي أنه يعيش في المكتب وينفصل عن الواقع ».

يقول ابن القيم: «الفقيه من يطبق بين الواجب والواقع، فلكل زمان حكم، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم».

الانتصار لمذهبه، وإنما من أجل أن يكون في مستوى الحدث والمناسبة ذلك أن قوة المدرسة بحسب قوة أتباعها وخدمتهم إياها» و«المذهب المالكي كمدرسة فقهية أصيلة، استفاد من ظروف تاريخية وسياسية جعلته يستقطب أتباعاً أو متمذهبين أو متمدرسين لا تعصبا لشخص مؤسس المذهب، بل إعجاباً بالمنهج العلمي الذي اعتمده للوصول إلى معرفة حكم الله في الواقعة».

2 - الاستشارات ذات الطابع

الأخلاقي: وهي عبارة عن تساؤلات ومحاولات تصبّ في باب النصح والإرشاد، والإمام الرسالي هو الذي يتفطن لمثل هذه الأعمال التي يحتاج إليها المجتمع بشكل كبير وضروري، فحياة الناس أسرار ومشاكل، وأكثر من يستأمن لمثل هذه المهام هو الإمام الذي يبشّر ولا ينفّر، والذي يحفظ السر

الخاتمة:

الاجتماعية ويتفاوتون علما وجهلا،
ويختلفون سنا وجنسا، والإمام بعد ذلك
مطالب بأن يتعامل مع هذا الكل، وهو
يعمل بصمت ويواجهه بصمت.

والإمام الناجح هو الذي يتأسي بما
جاء في القرآن الكريم على لسان شعيب
عليه السلام ﴿إِنْ أَرَادَ إِلَّا إِصْلَاحَ مَا
اسْتَطَاعَتْ، وَمَا نُوْفِقُ إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ
نُوفِقْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. [هود: 88]

ملاحظة:

الموضوع موثق وله مراجع.

يبدو أن طرائق تعامل الإمام مع
استفسارات الناس وواقعهم، يحتاج إلى
تضافر الجهود، وجمع واستقراء خبرات
كثير من الأئمة العاملين، ومع ذلك فإن
هذه المداخلة هي محاولة قد تسهم في
وضع لبنة من أجل توجيه ومساعدة
إخواننا الأئمة في تخطي الصعاب التي
لا يشعر بها إلا من مارس هذه الوظيفة
الرسالية.

إن الإمام عندما يكلف بمهام الإمامة
إنما يكلف وحده في مواجهة عدد كبير
من المصلين يختلفون في الطبائع وفي المترلة

